

مصطلح العلة النحوية : دراسة في المفهوم

أ. رقيق كمال

جامعة بشار - الجزائر

الملخص:

تعدّ العلة النحوية من أهم أركان القياس، ذلك لأنها تمثل الصلة بين المقيس والمقيس عليه، وهي الوساطة التي ينتقل من خلالها الحكم من المقيس عليه إلى المقيس، لذا نجد النحويين عموماً يتسمون بعقلية تحليلية لا تقتنع بظاهر الأمور بل تبحث عمّا وراءها، ففي هذا البحث سوف أتطرق للعلة في النحو العربي ماهيتها ومفهومها، وأنواعها، مركزاً على أحد أهم أسفار العربية ألا وهو الكتاب لسيبويه.

الكلمات المفتاحية: المصطلح - العلة - النحو - المفهوم - العربية.

Résumé :

La cause grammaticale est considéré comme l'élément le plus important de l'analogie, par ce qu'elle représente la relation entre le mesuré et la mesure elle-même. Elle est également la médiation dont le jugement se transporte de la mesure au mesuré. C'est pourquoi on trouve que les grammairiens généralement ont des caractères justificatifs (argumentative) et ne se contentent pas des justifiés des questions, mais ils cherchent ce qu'il y a derrière, sans doute, la spacieusement du langage Arabe et (Le livre) étaient le point de départ essentiel pour l'étude de cause et ses figures, surtout lorsqu'on sait que la cause après " Sibawayh " eussent pris des formes et des démentions multiples.

المقدمة:

العلة في اللغة تدل على عدد من المعاني⁽¹⁾، وأحدها : السبب، وهو ما يهمننا هنا، فالعلة هي السبب وعلة الشيء سببه يقال : " هذا علة لهذا أي سبب " ⁽²⁾، وقد اعتلّ وهذه علته أي سببه ⁽³⁾. ومن هذا المدلول اللغوي اخذ النحاة هذه اللفظة فأصبحت تعني في اصطلاحهم: " تغيير المعلول عما كان عليه " ⁽⁴⁾، أو " هي الأمر الذي يزعم النحويون أن العرب لاحظته حين اختارت في كلامها وجهاً معيناً من التعبير والصياغة " ⁽⁵⁾، أو " هي تفسير الظاهرة اللغوية والنفوذ إلى ما وراءها وشرح

مصطلح العلة النحوية : دراسة في المفهوم

الأسباب التي جعلتها على ما هي عليه"⁽⁶⁾. فالعلة النحوية إذن هي السبب الذي أدى إلى الحكم وأوجبه.

والمعروف أنّ النحو العربي منذ نشأته بني على أصول سار عليها النحاة، واتبعوها، وكان القياس أحد هذه الأصول، وإذا ما بحثنا عن معنى القياس وجدنا أنه "في وضع الناس بمعنى التقدير وهو مصدر قايست الشيء بالشيء مقايسةً وقياساً"⁽⁷⁾، أمّا في عرف النحاة فهو يعني "تقدير الفرع بحكم الأصل، وقيل هو حمل فرع على أصل بعلة"⁽⁸⁾، ولا بدّ لكل قياس من أربعة أركان يقوم عليها، قال أبو البركات الأنباري (ت 577 هـ): "لابد لكل قياس من أربعة أشياء: أصل، وفرع، وعلة، وحكم"⁽⁹⁾. فالأصل هو المقيس عليه، والفرع هو المقيس، والحكم هو ما ينتقل من المقيس عليه إلى المقيس، والعلة هي السبب الذي من أجله استحق المقيس حكم المقيس عليه⁽¹⁰⁾. فالنائب عن الفاعل مثلاً استحق الرفع قياساً على الفاعل، فالأصل هو الفاعل، والفرع هو النائب عن الفاعل، والحكم هو الرفع، والعلة الجامعة هي الإسناد⁽¹¹⁾.

وبذلك يتّضح لنا أنّ العلة النحوية فرع من أصل وهو القياس، وليس أصلاً قائماً بذاته ولكن النحاة اهتموا بها اهتماماً بالغاً وأعقبوا بها الأحكام النحوية تفسيراً أو تعزيزاً وافردوا لها المصنفات والمؤلفات النظرية فعوملت معاملة الأصل، فأصبحت كأنها أصل من أصول النحو العربي، والتعليل نشأ مرافقاً لنشأة الإنسان على الأرض، فالإنسان يراقب الظواهر فتلفت انتباهه فيقف إزاءها ويسأل عنها باحثاً عن أسبابها فيكتشف أسرارها فالدين الإسلامي قد أكد التفكير والنظر والتدبر فقد "وجد المفكرون الإسلاميون أن من الطبيعي - وقد حث القرآن على النظر والعلم والمعرفة والتدبر - أن يبحثوا عن أسباب الظواهر وأن لا يكتفوا بملاحظة أشكالها وصورها فحسب"⁽¹²⁾.

فليس غريباً أن يُنسب التعليل إلى علماء العربية الأوائل⁽¹³⁾، فالعرب قبل شيوع اللحن كانوا يتكلمون بلغتهم سليقة وطبعاً لا تعليماً وتلقيناً، ولكنهم احتاجوا حينما كثر اللحن وانتشر إلى استقراء هذه اللغة وضبط قواعدها⁽¹⁴⁾. ولما وقع اللحن في القرآن الكريم كان أثره عليهم شديداً فبادروا إلى إعرابه وضبط نقاطه بنقط عند أواخر الكلمات وكان ذلك عمل أبي الأسود

الدولي (ت 69 هـ) والنحاة من بعده، وقد أطالوا مراقبة أواخر الكلمات، وربما اختلفوا فيها وتجادلوا عندها، وطول هذه المراقبة هداهم إلى الكشف عن سر من أسرار العربية وهو أن هذه الحركات ترجع إلى علل، فسموا ما كشفوا (علل الإعراب)⁽¹⁵⁾، وهذا يمكننا من القول: "كانت نشأة التعليل إذن استجابةً لظروف وبواعث عربية وإسلامية معاً دون تأثير خارجي غير عربي"⁽¹⁶⁾.

فإن نشأة التعليل النحوي كانت مرافقةً لنشأة النحو مترامنةً معه يقول الدكتور صاحب أبو جناح: "إن عملية بناء النحو ونشأته رافقتها نشأة العلل التي يفسر بها النحاة الظواهر اللغوية والنحوية ويردون بها على تساؤلات الدارسين للغة ونصوصها والمعنيين بأمرها"⁽¹⁷⁾.

لكن علل النحوي لم تكن واضحةً في بادئ الأمر كما هي جلية الآن عند المتأخرين من النحاة، ولكنها كانت تفهم من سياق الكلام، وتلتبس من نمط الحديث⁽¹⁸⁾، وفي تراثنا اللغوي ما يشير إلى وجود مظاهر هذه العلل النحوية عند نحائنا الأوائل الذين كانوا يوجهون بها الكلام ليستقيم معناه دون أن يقصدوا تلك العلل ودون أن يبحثوا عنها، فكتب التراجم والطبقات تنسب إلى عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت 117 هـ) أولوية من علك النحو⁽¹⁹⁾ ونهج علله⁽²⁰⁾ وشرحها⁽²¹⁾.

ويطالعنا بعد الحضرمي عيسى بن عمر الثقفي (ت 149 هـ)، وأبو عمرو بن العلاء (ت 154 هـ) وتروي لنا كتب التراجم اهتمامهما بالتعليل أيضاً، ومما يروى عنهما أنهما كانا يقرآن قوله تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ (سبأ: من الآية 10)، بنصب الطير ويختلفان في التعليل، فقال عيسى: هو على النداء، كما تقول: يا زيد والحارث لما لم يمكنه: ويا الحارث. وقال أبو عمرو: لو كان على النداء لكان رفعاً، ولكنه على إضمار (وسخرنا الطير) كقوله على اثر هذا: ﴿وَلَسْلِمَانُ الرِّيحُ﴾⁽²²⁾ (الأنبياء: من الآية 81). والتعليل بعد ذلك عند هؤلاء النحاة قد اتسم بسمات حدّدت إطاره ووضحت معالمه يمكن أن نجملها بعدة نقاط:

1- التعليل عندهم يتناول قضايا جزئية ومسائل فرعية فهم في تعليلاتهم لا يرتبطون بغير القضية التي يعللونها ولا ينظرون إلى غير الجزئية التي يسوغونها⁽²³⁾.

2- إن عللهم كانت يسيرةً تساعد على فهم كلام العرب يدور معظمها حول العامل وبعضها يدور حول المعنى الذي توخاه الشاعر⁽²⁴⁾.

مصطلح العلة النحوية : دراسة في المفهوم

3- كانت عللهم متوافقة مع القواعد فليس ثمة تناقض بين التعليل وبين ما توصلوا إليه من قواعد بل أكثر من ذلك فإن التعليل ليس إلا تبرير القواعد وإساعتها ثم شرحها لبواعثها من ناحية، ولأهدافها من ناحية أخرى⁽²⁵⁾.

4- قلة عللهم " ويبدو أن السر في ذلك هو أنهم وجهوا جل عنايتهم ومعظم جهودهم ناحية التقعيد للظواهر اللغوية، أما التعليل لم يقصدوا إليه ومن ثم لم يتوسعوا فيه⁽²⁶⁾.

فما نكاد نلم بعصر الخليل وتلميذه سيبويه حتى نجد قواعد النحو قد وضعت وتأصلت وبُنيت عللها فرسخت في الأذهان وقبلها العلماء، يقول الدكتور عبد الرحمن السيد: "فإذا ما وصلنا إلى الخليل وجدنا أن العلة قد استكملت أسبابها، وأن النحاة قد اشرفوا على الغاية بها، وإنها قد وصلت في مراحل النمو إلى درجة النضج، فقد اتضحت معالمها وأصبحت أداة فعالة للتفرقة بين حالات الكلمة المختلفة، وضروب الأساليب المتباينة"⁽²⁷⁾، ولعل خير شاهد على ذلك "كتاب سيبويه" الذي لا تخلو مسألة من مسائله من تعليل وتوجيه فنراه يكثر التعليلات في كتابه منطلقاً من تأصيله القوي: "وليس شيء يضطرون إليه إلا وهم يحاولون به وجهها"⁽²⁸⁾.

حتى قال عنه الدكتور شوقي ضيف: "لا يعلل فقط لما كثر في ألسنتهم واستنبطت على أساسه القواعد، بل يعلل أيضاً لما يخرج عن تلك القواعد وكأنها لا يوجد أسلوب ولا توجد قاعدة بدون علة"⁽²⁹⁾، فقد اتسمت علل الخليل وسيبويه بعدت سمات نحاول سردها في ما يأتي:

1- إنها علل تعليمية، إذ التقى الخليل مع من سبقه من النحاة في الغاية من التعليل وهي فهم كلام العرب⁽³⁰⁾.

2- اتسمت عللها بالشمول فأصبحت تتناول كل جزئيات البحث النحوي فلا نكاد نجد جزئية من جزئياته دون تعليل⁽³¹⁾.

3- إن عللها كانت متينة محكمة مدعومة بالقياس وموضحة بالأمثلة⁽³²⁾.

وقد أثار توسيع الخليل لنطاق العلة الاهتمام بها، فازدادت العناية بها من ذلك الحين، وأخذت تشغل من عقول النحاة حيزاً كبيراً فجاء بعد الخليل وسيبويه نحاة كوفيون وبصريون اعتمدوا التعليل كثيراً، منهم الفراء (ت: 207هـ) الذي عني بالتعليل ولم تكن علة تخلو من الطابع